مصطلحات ومفاهيم قرآنية

التوبة

د. صالح عضيمة

في ظلال القرآن الكريم

يروي الشيخ الصدوق في *معاني الأخبار* تعريفاً مأثوراً، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام للتوبة النصوح، على غاية من البساطة ومن الدقة والشفافية أيضاً، يقول عليه السلام: «*التوبة النصوح أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل*».

ويروي مثله أيضاً، مع تفاوت يسير:

عن أحمد بن هلال، قال: سألت أبا الحسن الأخير عليه السلام، عن التوبة النصوح ما هي؟ فكتب عليه السلام: *أن يكون الباطن كالظاهر وأفضل من ذلك*.

وفي القولين غموض، مردّه إلى هذا الوضوح الباهر الذي يسطع منهما.

وليس يُراد بالظاهر في هذين الحديثين ما يظهر للناس وما يخفى عنهما، لأن التوبة شأن خاص بالإنسان، وعهد جديد ذاتي بينه وبين خالقه، ولا نقدر أن نقول أن المرء يُظهر لربه شيئاً ويُبطن عنه أشياء، *فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء*، فلم يبقَ إلّا أن يكون معنى الظاهر والباطن هنا، هو الإنسان التائب نفسه، فظاهره سلوكه وأفعاله، وباطنه نواياه وتصوراته واعتقاداته.

والتوبة النصوح هي أعلى شيء في مراقي تطورات التوبة ودرجاتها، يلاقي الإنسان فيها أشتات ذاته، ويوحد بينهما، فلا يعمل الذنب ولا يفكر فيه، ولا يختلف بعد ذلك قوله عن فعله، ويعود ما يقوم به من أعمال هو ما يتصوره، ولا يقدر أن ينوي إلّا ما يفعل، ولا يفعل إلّا ما ينوي، وفعله عقيدته في سريرته، وباطنه هو ظاهره وظاهره هو باطنه.

وللعارف الحكيم (سلطان محمد) قولٌ أنيق دقيق، أثناء شرحه للآية: ﴿*إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة*﴾، ربما نجد فيه ما يقدم شرحاً آخر للقولين السابقين. ولأنه طويل مفصل نجتزئ منه ما يناسب الموضوع، يقول:

«وكل من عمل خيراً فبجهته النورية وحكومة العقل، فلا شر إلّا بالجهل، ولا خير إلّا بالعقل، ولا يكون السوء إلّا بجهالة، يعني

إلّا بتسخير عامله للجهل لا تقييد لفعل السوء.

وعن جعفر الصادق: *كل ذنب عمله العبد، وإن عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربّه...*

والتقييد بالجهالة إشارات لطيفة إلى أن من له استعداد التوبة بعدم إبطال الفطرة، مساويه ـ وإن كانت كثيرة ـ فهي قليلة مفردة في جنب ما يمحوها من الفطرة، وإنها وإن كانت بالغة في القبح فهي ضعيفة غير بالغة، لأن مصدرها الجهالة العرضية، وإن مصدرها ـ وإن كان هذا الإنسان نفسه ـ لكن سببها الجهل الذي هو مغاير لها، وبخلاف ذلك كله من لم يكن له استعداد التوبة».

وفي التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، كلام للقفال استطبنا إيراده، لأنه يجمع بين اشتقاق اللغة وبين تقدير معنى جميل للتوبة، يقول:

«أصل التوبة الرجوع كالأوبة، يقال توب كما يقال أوب، قال الله تعالى: ﴿*قابل التوب*﴾، فقولهم تاب يتوب توباً وتوبة ومتاباً فهو تائب وتواب، كقولهم آب يؤوب أوباً وأوبة فهو آيب وأواب.

والتوبة لفظ يشترك فيها الربّ والعبد، فإذا وصف بها العبد فالمعنى راجع إلى ربه، لأن كل عاص فهو بمعنى الهارب من ربّه، فإذا

▣ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «التوبة النصوح أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل».

▣ التوبة شأن خاص بالإنسان، وعهد جديد ذاتي بينه وبين خالقه.

▣ التوبة النصوح هي أعلى شيء في مراقي تطورات التوبة ودرجاتها، يلاقي الإنسان فيها أشتات ذاته، ويوحد بينهما، فلا يعمل الذنب ولا يفكر فيه.

تاب فقد رجع عن هربه إلى ربّه. فيقال تاب إلى ربّه.

والربّ في هذه الحالة كالمعرض عن عبده، وإذا وصف بها الربّ تعالى، فالمعنى أنه رجع على عبده برحمته وفضله، ولهذا السبب وقع الاختلاف في الصلة، فقيل في العبد تاب إلى ربّه، وفي الربّ على عبده».

وللإمام جعفر بن محمد الصادق عليه‌السلام قول ذُكر في *مصباح الشريعة* جدير أن يقف الفكر أمامه طويلاً، وأن يسافر التدبّر في آفاقه بعيداً، يقول:

«التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال. وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ، وتوبة الأولياء من تلويث الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب».

وآثار هذا الكلام بادية في أقوال الصوفية عن التوبة، ويكفينا أن نورد ما لاثنين منهم، أحدهما أبو طالب المكي والآخر أبو القاسم القشيري.

يقول *المكي* مسنداً إلى بعض العارفين:

«العامة يتوبون من سيئاتهم والصوفية يتوبون من حسناتهم، يعني من تقصيرهم في أدائها، لعظيم ما يشهدون من حقّ الملك العزيز سبحانه وتعالى المقابل بها، ومن نظرهم إليها أو نظرهم إلى نفوسهم بها، وهي

■ «التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابد للعبد من مداومة التوبة على كل حال. وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ، وتوبة الأولياء من تلويث الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب».

منّة الله تعالى إليهم واصلة».

ويردد *القشيري* أقوال المشاهير من طائفة الصوفية:

«سُئل ذو النون المصري عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وقال أبو الحسين النوري: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عزّوجل.

ويقول عبد الله بن علي بن محمد التميمي: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات».

والتوبة عند الإمام الغزالي، يجب أن تمرّ في مراحل ثلاث لكي تنقى وتتوهج، ثم تعود نوراً بين يدي صاحبها، والمراحل هي، العلم والحال والعمل:

«أما العلم فهو معرفة ما في الذنب من الضرر وكونه حجاباً بين العبد ورحمة الربّ، فإذا عرفت ذلك معرفة محققة، حصل من هذه المعرفة تألّم القلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات المحبوب تألّم...

ثم إن ذلك الألم إذا تأكّد حصلت منه إرادة جازمة، ولها تعلق بالحال وبالمستقبل وبالماضي، أما تعلقها بالحال فيترك الذنب الذي كان ملابساً له، وأما بالمستقبل فالعزم على ترك ذلك الفعل المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

▣ والتوبة هي الرجوع الاختياري عن السيئة إلى الطاعة والعبودية، إنما تتحقق في ظرف الاختيار، وهو الحياة الدنيا التي هي مستوى الاختيار، وأما فيما لا اختيار للعبد هناك في انتخاب كل من طريقي الصلاح والطلاح والسعادة والشقاء فلا مسرح للتوبة فيه.

فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات وأعني به اليقين التام، بأن هذه الذنوب سموم مهلكة، فهذا اليقين نور، وهذا النور يوجب نار الندم، فيتألّم به القلب، حيث أبصر بإشراق نور الإيمان، إنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس، وقد كان في ظلمة، فيطلع النور عليه بانقشاع السحاب، فرأى محبوبه قد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، فتنبعث من تلك النيران إرادته للانتهاض، للتدارك.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي. ثلاثة معان مترتبة في الحصول على التوبة، ويطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يُطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، قال عليه السلام: الندم توبة».

وينقل أبو طالب المكي عن بعض العلماء قوله:

«لا تصحّ التوبة لعبد حتى ينسى شهواته، ويكون ذاكراً للحزن لا يفارق قلبه، ذاهباً عن الذنب لا يخالج سرّه. وقال بعض السلف:

من علامة صدق التائب في توبته، أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، ويفرج ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة.

ولبعض العلماء أيضاً: لا يكون العبد تائباً

□ لا تصحّ التوبة لعبد حتى ينسى شهواته، ويكون ذاكراً للحزن لا يفارق قلبه، ذاهباً عن الذنب لا يخالج سرّه.

□ من علامة صدق التائب في توبته، أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، ويفرج ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة.

حتى يدخل مرارة مخالفة مكان حلاوة موافقتها.

وينقل عن آخر أنه قال: التوبة هي كسب الإيمان وأصول الخيرات».

وربما كان هذا القول من أدقّ التعاريف التي وصفت التوبة وأخبرت عنها، وهو يلخص قسطاً هاماً من كلام العلّامة الطباطبائي في التوبة، والقسط الآخر سنجتمع عليه مختصرين متأملين، ففيه فوائد جمّة، وله شأن كريم.. يقول:

فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله، والانخلاع عن ألوان البعد والشقاء، يتوقف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، والتنعّم بأقسام نعم الطاعات والقربات، وبعبارة أخرى: يتوقّف القرب من الله ودار كرامته على التوبة من الشرك ومن كل معصية.

قال تعالى: ﴿*وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون*﴾...

إن التوبة هي حقيقة ذات تأثير في النفس الإنسانية من حيث إصلاحها وإعدادها للصلاح الإنساني الذي فيه سعادة دنياه وآخرته، وهي تنفع في إزالة السيئات النفسانية التي تجرّ إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأولى والأخرى، وتمنعه من الاستقرار على أريكة السعادة. والذي لأجله شرعت التوبة، هو التخلّص من هلاك الذنب وبوار المعصية، لكونها وسيلة الفلاح ومقدمة

▣ لا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزته على نشاط من الروح الفعالة وجدّ في العزيمة والسعي، ما لم تخسر صفقته في متجر الحياة.

▣ المعصية وهي الموقف السوء من الإنسان، ذو أثر سيئ في حياته، لا يُتاب منها ولا يرجع عنها إلّا مع العلم والإيقان بمساءتها.

الفوز بالسعادة، كما يشير إليه قوله تعالى:
﴿*وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون*﴾.

ومن فوائدها، مضافة إلى ذلك، أن فيها حفظاً لروح الرجاء من الانخماد والركود، فإن الإنسان لا يستقيم سيره الحيوي إلّا بالخوف والرجاء المتعادلين، حتى يندفع عما يضرّه وينجذب إلى ما ينفعه، ولو لا ذلك لهلك، قال تعالى:
﴿*قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم...*﴾.

ولا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزته على نشاط من الروح الفعالة وجدّ في العزيمة والسعي، ما لم تخسر صفقته في متجر الحياة، وإذا بدا له ما يخسر عمله ويخيب سعيه ويبطل أمنيته، استولى عليه اليأس وانسلت به أركان عمله، وربما انصرف بوجهه عن مسيره آيساً من النجاح خائباً من الفوز والفلاح، والتوبة هي الدواء الوحيد الذي يعالج داءه ويحيي به قلبه، وقد أشرف على الهلكة والردى:

والمعصية وهي الموقف السوء من الإنسان، ذو أثر سيئ في حياته، لا يُتاب منها ولا يرجع عنها إلّا مع العلم والإيقان بمساءتها، ولا ينفك ذلك عن الندم على وقوعها أولاً، والندم تأثر خاص باطني من فعل السوء، ويتوقف على استقرار هذا الرجوع ببعض الأفعال الصالحة المنافية لتلك السيئة الدالة على الرجوع والتوبة ثانياً.

وإلى هذا يرجع جميع ما اعتبر شرعاً من آداب التوبة كالندم والاستغفار والتلبس بالعمل الصالح والانقلاع عن المعصية، إلى غير ذلك مما وردت به الأخبار وتعرضت له كتب الأخلاق.

والتوبة هي الرجوع الاختياري عن السيئة إلى الطاعة والعبودية، إنما تتحقق في ظرف الاختيار، وهو الحياة الدنيا التي هي مستوى الاختيار، وأما فيما لا اختيار للعبد هناك في انتخاب كل من طريقي الصلاح والطلاح والسعادة والشقاء فلا مسرح للتوبة فيه.

ومن هذا الباب التوبة فيما يتعلق بحقوق الناس. فإنها إنما تُصلح ما يتعلق بحقوق الله سبحانه:

وأما ما يتعلق من السيئة بحقوق الناس مما يحتاج في زواله إلى رضاهم فلا يتدارك بها البتة، لأن الله سبحانه احترم الناس بحقوق جعلها لهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم، وعدّ التعدّي إلى أحدهم في شيء من ذلك ظلماً وعدواناً، وحاشاه أن يسلبهم شيئاً مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم، وقد قال عزّ من قائل:
﴿*إن الله لا يظلم الناس شيئاً*﴾.